ليالي الداخلية

رواية تتناول حياة الكاتب ورفاقه من الطلبة في الداخلية """"دار الطالب ""بفجيج شرق المملكة المغربية في السبعينيات من القرن الماضي

تصوير للاحداث و نقل للصور المثيرة داخل فضاء الدار وفي المدينة منذ وصول الكاتب الى الداخلية 1974 حتى خروجه منها 1978

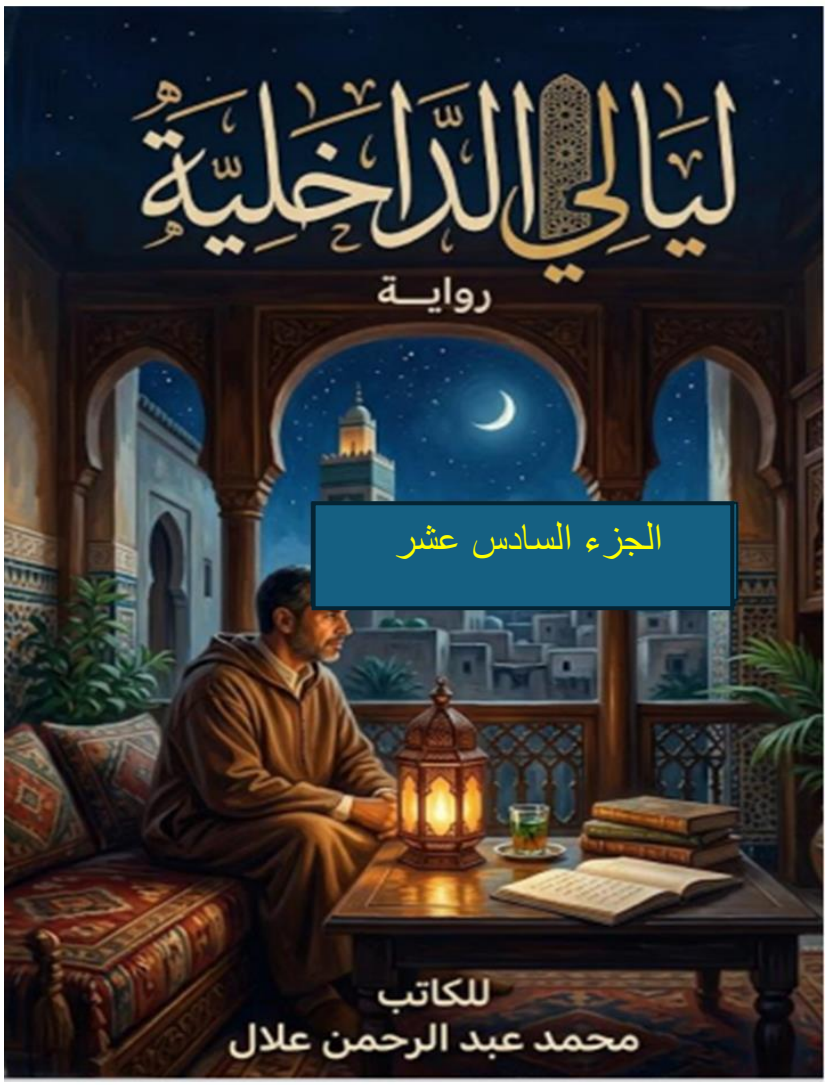

كان المطعم في الداخلية بدار الطالب بفجيج يقدم للنزلاء وجبات رتيبة ،أغلبها من العدس والحمص والفاصولياء والحساء، ووجبة كسكس مع قطعة لحم تكاد تكون يابسة يزينها قليل من جزر ، يتبرع بها المحسنون من المدينة لفائدة هؤلاء الطلاب القادمين من مناطق مختلفة مجاورة لفجيج -بوعرفة ،تالسينت ، بني تجيت ،تندرارة ...-تساهم فيه جنبا الى جنب مندوبية التعاون الوطني .كان """"سي الطيب """"المقتصد هو من يشرف على تدبير الاطعام هناك .كان رجلا متقدما في السن قليلا كما بدا من ملامح على وجهه .يضع على رأسه طربوشا من الصوف أبيض وأحيانا أخرى يضع عليه طربوشا أحمر .لا يفارقه جلبابه الصوفي ونعليه من الجلد الخشن .كان رجلا طيبا . لا يظهر بالدار الا في فترات المساء حيث يقدم للطباخ النصيب المخصص لليوم الموالي .من حين لآخر ،في فترات منفردة ،كان الطلاب يستفيدون من وجبة من السمك المعلب يقتسم العلبة نزيلين أو ثلاثا .كانت الوجبة بالنسبة لهؤلاء في ذلك التاريخ دسمة تفي بحاجتهم الى الإحساس

بتغير ولو طفيف في المواد المقدمة على طول الشهر على مر الدورات والعام .كانت تقدم بشكل مفاجئ دون سابق إعلام أو مناسبة .تفتح العلبة فتتسابق الأصابع الى الحصول على أكبر السمكات بها. يتطاير الزيت منها متدفقا على المائدة فتقوم تلك الأصابع بلعقه دون حياء .دون خوف من أن يصيبهم من جراء الأوساخ عليها مغص أو مرض .قد ينفرد أحدهم بالعلبة بعد إفراغها ،فينطلق بعيدا الى إحدى زوايا الدار البعيدة ، ثم يمسك بقطعة من لباب الخبز ، يدخلها حبا في أن تمتص ما تبقى من زيت لذيذ بداخلها. يستخرجه فيدفعه الى فمه فتراه ممتلئا قد انتفخت خدوده حتى الوجنتين .يمضغ على مضض بصعوبة قبل أن يشرع في التهام نصيبه .ينتشر الطلاب في الساحة منتشين بوجبة تلك الليلة وهم يتمنون تكرارها في كل الأيام .كانت تلك مجرد أمنيات .فالقطنيات والحساء أوفر مخزونا في مستودع الداخلية من علب السردين .

دخل الطلاب ذات ليلة متأخرين بعد حضور عرض مسرحي في فضاء بمقر

قيادة فجيج لفرقة عبدالرؤوف .ضحك الطلاب خلال ذلك العرض حتى بانت أضراسهم ودمعت عيونهم .نسوا همومهم كالسكارى لساعة من الزمن أو تزيد ؛في قاعة الإطعام بالداخلية وقد عادوا يدفعهم الشوق الى معانقة الطعام ،جلسوا حول موائد أعدت عليها صحون من زجاج وملاعق من معدن و قطع الخبز تزينها أيضا .لم تحضر الطنجرات بعد .شرع الجوع يؤثر على بطون الجوعى .على حين غرة والطالب تيمح يجلس هادئا منتظرا يتذكر ما رآه قبل قليل على خشبة المسرح ،إذا به يسمع من بعيد ملاعق تصطك بالصحون محدثة إيقاعا يصم الآذان .صار ذلك الصوت يتصاعد رويدا رويدا حتى عم القاعة بأكملها .كان قويا مسموعا .ما قطع ذلك الصوت سوى منظر قفف يحملها طلاب صاروا يوزعون علب السمك على الجالسين .عجبا ،إنها سابقة .سيحصل كل نزيل على علبته الخاصة .سيأكل حتى الشبع .توقف الدق على الصحون فجأة وطفق النزلاء يفتحون العلبة تلو الأخرى استعدادا لتناول ما بها من لذيذ السمك ، أطفأت الأنوار

في رمشة عين، فما عاد يسمع سوى صوت الصحون تتكسر على أرضية القاعة ،وملاعق تصطدم بالجدران والسقف محدثة أصواتا مرعبة .يصاحب صراخ مرتفع وصفير . يخترق كل ذلك بين حين وحين صوت أحدهم يردد في غضب """خانز ،راه خانز ،عطاونا السردين خانز"""أخذ تيمح مكانه أسفل الطاولة مخافة أن يصيبه صحن فيشج رأسه أو ملعقة فتفقأ عينه ،أو يتألم من شدة وقعها على وجهه .تعالى الصراخ وازداد صخبا وما استطاع له المشرف إيقافا .في غمرة ذلك اللغط ،دخل أحد هم يقول :""القايد ،القايد"" أنيرت القاعة من جديد .صارت الجموع تتدفق خارجها في زحام وتدافع شديد .وقف القائد هناك ببذلته العسكرية يقول :""ما ذا أصابكم ؟هل شبعتم وقمتم تغنون بهذه الطريقة ؟سوف تعرضون على مركز الشرطة في الغد كلكم وستعاقبون."" تركت كلماته أثرا بالغا في نفوس هؤلاء المحتجين .توجه اليه أحد قدماء الداخلية وخاطبه :""سيدي القائد ،لقد أعطونا سمكا فاسدا سنموت جوعا وقد نموت تسمما إن تناولناه"" كانت أرضية

قاعة الاطعام شاهدة على ما حدث ,لا مجال لإنكار الواقعة. تخرج منها رائحة النتن تُشتمُّ من بعيد .تفهم القائد الأمر سريعا ووعد الطلاب بوجبة رفيعة في الغد مؤكدا أن الأمر لم يكن مقصودا ،و أنه لن يتكرر .وما كان عليهم القيام بمثل ما قاموا به من عنف وخروج عن القانون .كان ذلك أول عهد لتيمح مع مظاهر الإحتجاج التي لم يسمع بها ولم يحضرها من قبل.
كانت هذه الوجبات بالكسبة للأطفال من الطلاب نزلاء الداخلية بدار الطالب بفجيج وبداية سبعينيات القرن الماضي ضعيفة وهي مصدرهم الوحيد تقريبا للإقتيات ؛أغلبهم ينحدرون من أسر متوسطة الدخل او أصابها داء الفقر تماما فيوفرون لهم البديل .لم تكن الحقول المترامية على أطراف دروب القصور توفر لهم فرصا حقيقية للحصول على بعض الخضروات أو بعض الفاكهة حتى ولو على سبيل سرقة بيضاء وازعها الاحتياج والجوع الشديد خصوصا في أيام الشتاء ولياليه الباردة .كانت جدرانها مرتفعة لا تسمح باجتيازها الا لمن أراد المغامرة

.وحدث أن مر ذات مساء والشمس تفتر لمغربها بخيوط فاترة ،والظلام يحل بطيئا بطيئا على الأرجاء ، حدث أن مر بحقل تتدلى بعض أشجار التفاح بأغصانها المثمرة على الزقاق المجاور .كان جائعا حقا .بدت له ثمرة التفاح هناك على غصن قد مال حتى كاد ينكسر مما يحمل من الفاكهة.ظهرت جميلة المنظر طيبة المذاق. نظر اليها نظر الماكر الولهان .في غفلة منها ومن مرافقه ، مد تيمح يده ،وبخفة حاول انتزاع الثمرة من غصنها .رآها جوهرة علقت على واجهة دكان جوهري .نفيسة الثمن .بطل من ينالها .حاول وحاول ،لكن التفاحة استعصت وعلقت تتمسك برداء أبيها الغصن كأنها ضرس تمسكت بفك شاب عشريني .من داخل البستان ،انبعث صوت يتوعد السارق """من هناك ؟ انتظرني أيها السارق ، سألحق بك ، لقد عرفتك"""طار عقل تيمح خوفا وانطلق يجري ليدرك مرافقه .تخلى عن حلمه في قطف الثمرة من شدة رعبه .مازال الصوت يتردد على سمع الطفل الجائع حتى وإن بعدت المسافة بينه وبين الحقل وصاحبه .قطع المسافة

الى حي بغداد لا يتوقف عقله عن التفكير في ما اقترف من جرم شنيع .جرم محاولة السرقة .طلب منه مرافقه وقد كان راشدا أن يطمئن .أخبره على الطريق بأن الحقل يعود لأسرة عريقة طيبة كريمة في قصر زناقة ،أسرة ""حاجا"" لكن الطفل تيمح لم يطمئن ، فالسيد أحمد هو الآن من يشرف على قاعة المطالعة بالداخلية ،وسوف يلقاه ليلا ويعاقبه على ما فعل . قضى تيمح تلك الليلة في دار مرافقه ببغداد .جفاه النوم وسيطر على عقله التفكير في الغد .حين حل الليل ،جلس على سريره ينتظر أن ينادى عليه .أخذ يفكر ويدبر وما اهتدى الى سبيل يريح ضميره ويطفئ نار خوفه .لم يدم الانتظار طويلا ،ها هو "السي احمد" يطلبه بمكتبه .وقف تيمح الطفل الجائع محرجا خائفا يترقب نوع ما سيعاقب به .لم ينبس ببنت شفة وما كان له ليرفع رأسه وعينيه الى الذي أمامه. لخص ""سي أحمد""الأمر في بضع كلمات """"مرة أخرى ،عندما تجوع ،أخبرني، هل فهمت ؟ هل ستخبرني ؟ """" حرك تيمح رأسه بالإيجاب وهو لا يعلم أي شعور ينتابه في تلك اللحظات أمام تلك

الكلمات الحكيمة .انصرف الى سريره والغبطة لا تجد مكانا في وجدانه الا سكنته

.

في مساء احد الاحاد من شهر فبراير من العام 1977 ، وقد مر على تلك الحادثة وقت من الزمن وما محاها الزمن من مخيلته ،اتفق تيمح وجماعة من النزلاء حديثي العهد بالداخلية على إعداد وجبة غذاء في احدى الجبال المحيطة بفجيج .جبل حيث تمر الى الاسفل منه طريق معبدة مؤدية الى بوعرفة. اجمعوا أمرهم ،وعقدوا العزم على الذهاب بعد الظهر ،بعد تناول الطبق المعتاد بالداخلية ؛ابتاعوا وهم على الطريق الى الجبل علبة زيتون معلب ،و اتفقوا على طهيها على نار هادئة وقودها الخشب والحجارة واجمعوا على أكلها حتى يشبعوا ويكفيهم ذلك مد أيديهم بالسؤال أو السرقة .هناك عند وصولهم ،فتحوا العلبة بعد أن جمعوا حطبا أوقدوا عليه نارا ،ثم تركوا حبات الزيتون تطهى عليها .أرادوا أن يجعلوها مكملة لغذائهم ومعينة لهم على ملء بطونهم .احترقت حبات الزيتون بعد أن

جف الماء داخل العلبة والأطفال يمرحون ويلعبون بعيدا عن الكانون .اسودت العلبة حتى أخذ ما احتوته لون الفحم .كانت الشمس على الجبل دافئة تسقط على حجارة مسطحة باردة .أخذوا قطعا من الحجر وصاروا ينحتون عليها أسمائهم وتاريخ ذلك اليوم وهم يغفلون أن نقودهم ذهبت أدراج الرياح في تلك العلبة .صار كل واحد منهم يضرب العلبة يدحرجها عبر المرتفع في غضب وانتشاء . قلبت وجبة الغذاء الدسمة الى مباراة في كرة القدم وسيلتها علبة زيتون من معدن اسودت ونالت من الضرب بلا رحمة حتى تشوهت وكأنها هي المخطئة .رحم الله تعالى ""محمد أشيخ " كان هناك يومها .كان أنيقا في ملبسه ومظهره وخلقه .وجد نفسه مع هؤلاء المساكين .ما كان يرغب في أن يكون بتلك الداخلية .لكن طلب العلم كان حتى في البلاد البعيدة ،حتى في الصين.